

القيم الإعجازية للبيان العربي وعلاقته بالنظم القرآني

د محمد بشيرباي

أستاذ محاضراً

كلية العلوم الإسلامية

جامعة الجزائر1

البريد الإلكتروني: MBACHIRBEY@YAHOO.FR

تاريخ الإرسال: 2020/01/25

تاريخ القبول: 2020/09/24

الملخص: لإثبات العلاقة الوطيدة بين الإعجاز البياني و النظم في القرآن سأكشف عن أهم أوجه الإعجاز من خلال دراسة آيات التحدي باعتبار القرآن تحدى العرب على أن يأتوا بمثل نظم القرآن و بيانه و هم أهل الفصاحة والبلاغة. فلماذا تحدى القرآن العرب بالوجه البياني خاصة من نظم و أسلوب وتصوير وغيرها؟ والجدير بالذكر أنّ الجرجاني ينفي وجود الإعجاز في اللفظة لوحدها خارج السياق القرآني الذي وضعت فيه، وإنما يكون الإعجاز في اتصالها و ارتباطها مع أخواتها من الألفاظ. ولعل الإمام الزمخشري الذي طبق نظرية النظم تطبيقاً كاملاً في تفسير القرآن الكريم من خلال كتابه الكشاف، كما يعدّ أول من تطرق للتفسير البياني الشامل للقرآن، وعلى الرغم من أنه لم يؤلف مؤلفاً خاصاً بالإعجاز إلا أنه تطرق لأسرار الإعجاز البياني؛ لأنه يشمل كل ما تحتويه لفظة "البلاغة" من معنى حروفه، أصواته، أسلوبه، فنونه البيانية، سياقته. ووضعت لذلك الخطة العامة التالية:

- 1- مدخل إلى الإعجاز القرآني.
- 2- البيان روح الإعجاز القرآني وعلاقته بالنظم.
- 3- أثر الإعجاز البياني في تعليم اللغة وتنميتها.

الملخص باللغة الأجنبية :

To prove the close relationship between the graphic miracle and the systems in the Qur'an, I will reveal the most important aspects of miracles by studying the verses of the challenge, considering that the Qur'an challenged the Arabs to come up with the same systems as the Qur'an and its rhetoric, and they are the people of eloquence and rhetoric. Why did the Qur'an challenge the Arabs with a special graphic aspect of systems, style, photography, and others?

Because it includes everything the word "rhetoric" contains in the meaning of its letters, sounds, style, graphic art, and context.

الكلمات المفتاحية: الإعجاز البياني؛ النظم؛ السياق القرآني؛ تعليم اللغة

الكلمات المفتاحية باللغة الإنجليزية: Quranic context Systems Graphic miracle;
teaching the language

المحتوى:

1- مهاد: مدخل إلى الإعجاز القرآني :

الإعجاز القرآني اصطلاحاً:

من المعاني اللغوية لمادة "عجز" و "أعجز": الضعف و عدم القدرة على الشيء و إذا أسقطنا التعريف اللغوي على مصطلح "إعجاز القرآن" يكون معناه: "عجز العرب وغيرهم عن الإتيان بكلام يماثل القرآن مع تحديهم بأن يفعلوا ذلك. يقول أبو بكر الباقلائي: فلن يتشكك أحد و لا يجوز أن يتشكك مع وجوه هذه الأسباب في أنها في هذا القرآن من عند الله هذا أصل و إذا ثبت هذا الأصل وجوداً فإننا نقول أنه تحداهم إلى أن يأتوا بمثله و قرعهم على ترك الإتيان به طول السنين التي وصفناها فلم يأتوا بذلك"¹.

وقد أنزل الله تعالى آيات التحدي في أكثر من موضع، يقول عز وجل في سورة الإسراء الآية 88: **قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً**. يعلق الدكتور محمد شاكر على هذه الآية مبيناً معنى إعجاز القرآن: "...فلان هذا البلاغ القاطع الذي لا معقب له هو الغاية التي انتهى إليها أمر هذا القرآن و

القاضي أبو بكر الباقلائي -إعجاز القرآن-عالم الكتب-بيروت-لبنان-الطبعة الأولى 1408 هـ 1988¹ ص32.

أمر النزاع فيه، لا بين رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقومه من العرب فحسب، بل بينه وبين البشر جميعاً على اختلاف ألسنتهم(....) وهذا البلاغ الحق لا معقب له من بين يديه ومن خلفه، هو الذي اصطالحنا عليه فيما بعد وسميناه "إعجاز القرآن الكريم"². ومن جهته، قام عبد الله دراز بوصف حالة عجز العرب - وهم أصحاب الفصاحة والبيان- عن معارضة القرآن الكريم، يقول: "... ولكنهم لم يجدوا ثغرة ينفذون منها إلى معارضته، ولا سَلماً يصعدون به إلى مزاحمته، بل وجدوا أنفسهم منه أمام طود شامخ "فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً" حتى إذا استيأسوا من قدرتهم واستيقنوا عجزهم ما كان جوابهم إلا أن ركبوا متن الحتوف، واستنطقوا السيوف بدل الحروف...."³. وقد جاء في كتاب "إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدرة الرباني" تعريف إعجاز القرآن على ضوء ما ورد في أقوال السابقين كالتالي: "هو عدم قدرة الكافرين على معارضة القرآن وقصورهم عن الإتيان بمثله رغم توفر ملكتهم البيانية وقيام الداعي على ذلك وهو استمرار تحدّهم وتقرير عجزهم عن ذلك"⁴.

والجدير بالذكر أن الأقوال والتعريفات التي تدور حول الإعجاز القرآني تنبثق من آيات التحدي جميعها، والتي أوصدت الأبواب أمام كل من يحاول معارضة كلام الله عز وجل، وأن هذه المفاهيم قائمة على ثلاثة ركائز: طلب التحدي للعرب وغيرهم، محاولة المعارضة مع ما كان العرب من بلاغة وفصاحة وبيان وإثبات عجزهم عن المعارضة واستسلامهم لإعجاز القرآن.

2- البيان روح الإعجاز القرآني وعلاقته بالنظم.

توطئة

يعد الإعجاز البياني من أهم أوجه الإعجاز، ويرى العلماء أن آيات التحدي إنما تحدث العرب على أن يأتوا بمثل نظم القرآن وبيانه وهم أهل الفصاحة والبلاغة. فاشتغلت في

أبو فهر محمود محمد شاكر، مداخل إعجاز القرآن، مطبعة المدني: القاهرة مصر، دار المدني، جدة، السعودية: الطبعة الثانية 1435هـ/2014م، ص161.

عبد الله دراز، النبأ العظيم، دار الثقافة - الدوحة، قطر، 1405هـ/1985م، ص85.

عبد الفتاح الخالدي، إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدرة الرباني، دار عمان، الطبعة الأولى 1421هـ/2000م، ص17.

هذا البحث على وجه الإعجاز الذي تحدى القرآن به البشر حقيقة، و لطالما راودتني تساؤلات عن هذا ، هل فعلا تحدى القرآن العرب بالوجه البياني فقط؟ و لماذا لا يكون التحدي مرتبطا بجميع الأوجه؟ البلاغي و التشريعي و النفسي و العلمي و غيرها فأيات التحدي كلها ، اشتملت على لفظة "مثله" و لم تربط التحدي بوجه معين ، فهذه اللفظة قد تشمل جميع الأوجه.

البيان لغة واصطلاحاً :

البيان في اللغة: " بان ، بيانا : اتّضح فهو بيّن -ج أبناء و بنته بالكسر ، و بيّنته و تبينّته و أبنته و استبينّته : أوضحتها و عرّفته، و البيّن : الفصيح"⁵ فجاء في لسان العرب : "البيان، ما بيّن به الشيء من الدلالة و غيرها و بان الشيء بيانا: اتّضح فهو بيّن و استبان الشيء: ظهر"⁶ أما اصطلاحاً: يراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه بالاستعارة و الكناية و التشبيه".

هو عند الجاحظ : " اسم جامع لكل شيء كشف لك القناع المعنى و هتك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته...."⁷

ويعرفه الروماني: "هو الإحضار لما يظهر به تميز الشيء من غيره في الإدراك"⁸.

وهو في علم البلاغة قسم من أقسامها يشمل المجاز و الكناية و الاستعارة.

وذكر "البيان" في القرآن الكريم، في أكثر من موضع، منه قوله تعالى الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4) الرحمن 4-1.

يقول الطاهر بن عاشور في صدد تفسير هذه الآية : البيان : الإعراب عما في الضمير من المقاصد و الأغراض، و هو النطق و به تميّز الإنسان عن بقية أنواع الحيوان ، فهو من أعظم

⁵ مجد الدين الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص1525.

⁶ جمال الدين بن منظور ، لسان العرب، المجلد 13 ص66.

⁷ أبو عثمان الجاحظ -البيان و التبيين- تحقيق عبد السلام هارون- مكتبة الخانجي -القاهرة- الطبعة السابعة 1418هـ-1998م الجزء الأول-ص76.

⁸ أبو الحسن علي بن عيسى الروماني، النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاثة رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله أحمد، محمد زغلول سلام ، دار المعارف، مصر، الطبعة الثالثة، 1976م ، ص106.

النعم (....) و معنى تعليم الله الإنسان البيان : أنه خلق فيه الاستعداد لعلم ذلك و ألهمه وضع اللغة للتعرف".⁹

الإعجاز البياني كمركب إضافي:

لم أجد تعريفا دقيقا لهذا المصطلح في المصادر توفرت عندي، فهي تسهّل هذا المبحث بالحديث عن أهمية الإعجاز البياني من حيث كونه مرتبطا بالتحدي، فإنها تشير إلى مظاهر الوجه الإعجازي من نظم و أسلوب و تصوير و غيرها.

وأما عبد القاهر الجرجاني فنلمس عن الإعجاز البياني في كتابه "دلائل الإعجاز" و "أسرار البلاغة" و هذا الأخير تحدث فيه عن البلاغة ووجوبها و أساليبها و كيفية فهمها و تذوقها، لكن حديثه عن الإعجاز البياني واضح، من ذلك قوله في الاستعارة " و ضرب ثالث و هو الصميم الخالص من الاستعارة وحدّه أن يكون الشبه مأخوذا من الصورة العقلية و ذلك كاستعارة النور للبيان و الحجة الكاشفة عن الحق المزيلة للشك النافية للريب"¹⁰ واستدل بذلك على قوله تعالى: "...و اتبعوا النور الذي أنزل معه".

وأما دلائل الإعجاز فقد أداره على مسألة الإعجاز و فصل فيه القول ينظر النظم و شرحها و ناقش فيها الأمثلة و النماذج. وقد أشار في مقدمة هذا الكتاب إلى أهمية علم البيان و فضله، يقول: "و أنه الأساس لإدراك الإعجاز القرآني(....) ثم إنك لا ترى علما هو أرسخ أصلا و أسبق فرعا و أحلى جنى و أعذب وردا و أكرم نتاجا و أنور سراجا من علم البيان".¹¹ فإذا كان هذا الشأن في علم البيان عامة فكيف به في البيان القرآني خاصة؟ و هو الذي أسر القلوب و سحر العقول و عجزت عن محاكاته محاولات الجاهلين.

جاء بعد الجرجاني الإمام الزمخشري الذي طبّق نظرية النظم تطبيقا كاملا في تفسير القرآن الكريم من خلال كتابه الكشاف و لعله يعد أول عالم تطرّق للتفسير البياني الشامل للقرآن و على الرغم من أنه لم يألّف مؤلفا خاصا بالإعجاز إلا أنه تطرّق لأسرار الإعجاز

محمد الطاهر بن عاشور - التحرير و التنوير - الدر التونسية للنشر-تونس ، 1984م الجزء السابع و ⁹ العشرون ، ص233.

عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة ، تصحيح الشيخ محمد عبده، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى ، 1409 هـ 1988م ، ص49.

عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، قراءة و علّق عليه محمود شاكر، د . ط ، ص5. ¹¹

البياني من الفاتحة إلى الناس، من ذلك تفسير الآية 7 من سورة البقرة خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ يقول: "الختم و الكتم أخوان لأن في الاستيثاق من الشيء يضرب الخاتم عليه كتما له و تغطية لئلا يتوصل إليه و لا يطلع عليه، و الغشاوة : الغطاء فعالة من غشاه إذا غطاه و هذا البناء لما يشتمل عليه كالعصابة و العمامة ، فإن قلت : ما معنى الختم على القلوب و الأسماع و غشية الأبصار؟ قلت : لا ختم و لا تغشية تم على الحقيقة، و إنما هو من باب المجاز و يحتمل أن يكون من كلي نوعيه الاستعارة و التمثيل" ¹².

وقد أشار في مقدمة تفسيره إلى أهمية علم البيان يقول : "...فالفقيه و إن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام (...). و اللغوي و عن علك اللغات بقوة لحبيه، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما: علم المعاني وعلم البيان، وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمة وبعثته على تتبع مظاهرها همة في معرفة لطائف حجة الله وحرص على استضياع معجزة رسول الله ¹³.

وفي العصر الحديث شهد الإعجاز نهضة كبيرة لا سيما البياني منه على يد علماء وباحثين و أدباء اختار منهم بعض الأسماء على سبيل التمثيل لا الحصر.

مصطفى صادق الرافعي: كتابة: إعجاز القرآن و البلاغة النبوية تحدث فيه عن نظم القرآن المعجز وأضاف بعدا جديدا للإعجاز البياني، يقول: "والكلام بالطبع يتركب من ثلاث: "حروف هي من الأصوات، وكلمات هي من الحروف، وجمل من الكلم، وقد رأينا سر الإعجاز في القرآن، يتناول هذه كلها بحيث خرجت من جميعها تلك الطريقة المعجزة التي قامت به" ¹⁴. وقد جاء الرافعي بمصطلح جديد في علم الإعجاز أطلق عليه اسم "إعجاز النظم الموسيقي" أو "الإعجاز الصوتي" والناتج عن ترتيب حروفه باعتبار من أصواتها و

جار الله الزمخشري، الكشف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار المعرفة، بيروت، ¹² لبنان، الطبعة الثالثة، 1430هـ/2009 م الجزء الأول، ص41.

جار الله الزمخشري، الكشف-ص23¹³

مصطفى صادق الرافعي -إعجاز القرآن و البلاغة النبوية- دار الكتاب العربي -بيروت- الطبعة ¹⁴ التاسعة 1393هـ/1973م ص209

مخارجها، ومناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية في الهمس و الجهر و الشدة و الرخاوة و التفخيم و الترقيق وغيرها¹⁵

عبد الله دراز: تحدث عن الإعجاز اللغوي في كتابه "النبأ العظيم"، وعده الأهم، لأنه وقع التحدي به واهتم بدراسة الأسرار البيانية للقرآن، يقول: "الفضيلة البيانية إنما تعتمد دقة التصوير و إعادة التعبير عن المعنى كما هو"¹⁶. وهذه الفضيلة نجدها في سائر القرآن، فقد عبر عن المعاني بدقة وبراعة، باختبار الألفاظ المناسبة التي تصور لنا هذه المعاني بحيث لا نستطيع استبدالها بمرادفات لها. كما تحدث عبد الله دراز عن عجز العرب أمام معجزة القرآن يقول: "لقد سجل التاريخ هذا العجز على أهل اللغة أنفسهم في عصر نزول القرآن، وما أدراك ما عصر نزول القرآن؟ هو أزهى عصور البيان العربي و أرقى أدوار التهذيب اللغوي"¹⁷

فرغم أن العرب كانوا يتباهون بفصاحتهم وبلاغتهم و أساليبهم أشار دراز إلى خاصية التأليف الصوتي للقرآن-على غرار الرافي-والأنساق والانتلاف بين حروفه من حيث حركاته و سكناته، ومداتها و غنتها، واتصالاتها و سكناتها، وهذا ما أطلق عليه اسم: الجمال التوقيعي في توزيع الحركات و السكنات، والجمال التنسيقي في رصف حروفه و تأليفها من مجموعات مؤتلفة مختلفة و أدرج كل هذا تحت ما سناه بالقشرة السطحية للقرآن الكريم. وقد ذكر خصائص القرآن و أساليبه البيانية المعجزة منها:¹⁸

- (1) القصد باللفظ و الوفاء بحق المعنى: يعبر غزير المعاني بألفاظ مؤثرة
- (2) خطاب العامة الخاصة: وهاتان خاصيتان متباعدتان عند الناس لكنهما اجتماعا في القرآن بطريقة عجيبة معجزة فهو كلام واحد يفهمه البلغاء و العامة من الناس.
- (3) إقناع العقل و امتناع العاطفة، الإعجاز النفسي التأثري.

¹⁵ ينظر: المرجع نفسه 214-219

¹⁶ عبد الله دراز -النبأ العظيم- ص 107

¹⁷ عبد الله دراز -النبأ العظيم- ص 83

¹⁸ للتفصيل: ينظر النبأ العظيم ص 109 - 113

هذا باختصار عن جهود العلماء في مجال الإعجاز البياني وعدم ذكر كل الأسماء في المقام لا يعد تجاهلاً لها وإلا فإن الحديث عنها يستغرق الوقت ويطيل الكلام¹⁹. والملاحظ بعد قراءة المصادر التي توفرت لدي، أنها لم تحدد مفهوماً مباشراً للإعجاز البياني، وهذا الأمر أرقى فعلاً لم يجدد العلماء معنى واضحاً للإعجاز البياني؟ فهم يستهلون الحديث عن البيان وصورة في القرآن الكريم من تشبيه، وتمثيل وكناية واستعارة وغيرها. وهل فعلاً الإعجاز البياني مرتبط بعلم البيان الذي هو أحد أقسام البلاغة؟ أم أنه يشمل كل ما تحتويه لفظة "البلاغة" من معنى؟ حروفه، أصواته، أسلوبه، فنونه البيانية، سياقه؟ وإذا ربطنا الإعجاز البياني بعلم البيان فقط نكون قد اجفنا في حق القرآن و إعجازه.

وما وجدته أن تعريف الإعجاز البياني هو: إعجاز القرآن في نظمه وأسلوبه وتشبيهاته واستعاراته، كذلك ما قال به الراجعي: حروفه و أصواته و كلماته، كل هذا يدخل في دائرة الإعجاز البياني، وإن الحديث عنه متشعب طويل لأنه أهم وجه للإعجاز فهو موجود في كل القرآن بآياته وسوره وفي أبسط مركباته وحتى في صوامته و صوائته.

3- أثر الإعجاز البياني في تعليم اللغة وتنميتها.

دقة النظم في الأسلوب القرآني:

يقول الجرجاني في نظم القرآن مستدلاً بالآية 44 من سورة هود و هل تشك إذا فكرت في قوله تعالى : وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ فتجلى لك منها الإعجاز و بهرك الذي ترى و تسمع أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة و الفضيلة القاهرة إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلام بعضها ببعض و إن لم يعرض لها الحسن و الشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية و الثالثة بالرابعة و هكذا (.....) و أن الفضل تنتاج ما بينهما و حصل من مجموعها²⁰. والجرجاني بهذا القول ينفي وجود الإعجاز في اللفظة لوحدها خارج السياق القرآني الذي وضعت فيه، وإنما يكون الإعجاز في اتصالها و ارتباطها مع أخواتها من الألفاظ.

¹⁹ للنفسى بنظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي إعجاز القرآن البياني وفضل حسن عباس- إعجاز قرني

²⁰ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 45.

إذا؛ أخذت نظرية النظم مجالا واسعا من الاهتمام في الدراسات اللغوية، واستهلكت جهدا كبيرا من جهود الدارسين والباحثين، وليس الغرض هنا دراستها كنظرية، بل هو البحث في سرّ دقة النظم القرآني، وقيمتها الدلالية والأسلوبية، فالجرجاني «لم يرد من تأليفه إثبات إعجاز القرآن على سمت المتكلمين والمناطق، وإنما رام به الكشف عن إعجاز القرآن من زاوية نظرة لسانية وأسلوبية»²¹.

إنّ عبد القاهر الجرجاني بحكم استوائه على عرش البلاغة، وترفعه عن ثنائية) اللفظ والمعنى) نفذ بعبقريته - نحو عمق النص- إلى الجملة القرآنية بوصفها جامعة عناصر، وحاملة دلالة لا تتّضح إلّا في السياق الكلي لتلك الجملة. فقد استوقفته الاستعارة في كثير من الآيات فمضى يحلل الخطاب بمنهج يركّز فيه على البعد الفني، ودور الإسناد، وتعليق الكلم بعضه ببعض، ثمّ يبين أثر ذلك في المعمولات النحوية، وما تضيفه بتلك الطريقة الخاصة في النظم من جمالية على المعنى. فالإمام عبد القاهر لا يقف من الاستعارة موقف الرادّ لها، أو الملغى لأثرها في تسوية الصورة، بل يجدد الفهم إزاءها متجاوزا عتبة السطح - الذي بنى عليه العامة انبهارهم- إلى مستوى أشد عمقا، إلى حيث انتظام السلسلة الكلامية وفق ما تقضي به أصول النحو وقوانينه، وهو (النظم) «إنّ في الاستعارة ما لا يمكن بيانه إلّا من بعد العلم بالنظم، والوقوف على حقيقته»²².

وهذا المنهج هو الذي فسر به قوله تعالى فأمكنه من تخريج معاني جدت على الأسماع، معتقدا أن إصابة الدلالة الإجمالية من النظم تستلزم النظر في سائر وحداته الكلامية، بعلّة انفراد كل عنصر بدلالة جزئية، ومن ثمّ لا مناصّ من السعي في عقد الصلات بين العناصر المتجاوزة لاستدعاء الدلالات المتفشية في ثناياها. ولما كان القرآن مشتملا على الخصائص الفنية والأسلوبية التي تعارف عليها عرب الجاهلية في أهمّ خطاباتهم الإبداعية أصبح منتظرا أن يثير فهم شعورا بالانفعال وصل إلى حد الطمع في معارضته.

منزلة النّحوفي النّظم.

21 منقور عبد الجليل، علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي، د ط، دمشق-سوريا- منشورات اتحاد الكتب العرب، 2001، ص 147.

عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 22.109

كان الوجه المعقول الذي اجتذب علماء الإعجاز إلى النص القرآني إنما هو الفصاحة الملموسة في صياغة ألفاظه، وتصوير معانيه في ذلك النمط المفرد من النظم. فكثير هي المناسبات التي شهدت لأساطين البلاغة بشغفهم لهذا القرآن؛ برغم تناقضهم في تناوله ودراسته ولكن ظروفًا قد طرأت عجلت في وضع الأسلوب القرآني موضع النظر، والدراسة والتفكير. وقد نجد لعلماء الكلام والتفسير، واللغة هذا الحضور المكثف، وهو حضور لا يكشف إلا على نية الفصل في إعجازية القرآن من خلال نظمه. فقد بات لزامًا على العلماء التصدي لمن ادعى على القرآن بفضل ما أبدعوه من دراسات انسجم ضمنها العقل مع النقل؛ فالاستعانة بالمعارف العقلية، والدلائل المنطقية التي تسربل بها علماء المعتزلة والأشاعرة كانت تقف بالدفاع عن المعتقد الإسلامي، كما كانت تعني الحفاظ على معالم الكلام العربي من خلال التعريف بهويّة الأسلوب المعجز²³.

ولا تزال فكرة النظم تشغل عقول الدارسين بالنظر، واستجلاب أوجه الإقناع بنمطية هذا البناء المنفرد مع تجدد كل عصر؛ وذلك كما قال العلامة الطاهر بن عاشور: «إن نظم القرآن مبني على وفرة الإفادة وتعدد الدلالة، فجعل القرآن لها دلالتها الوضعية التركيبية، التي يشاركها فيها الكلام العربي كله. ولها دلالتها البلاغية التي يشاركها في مجملها كلام البلغاء ولا يصل شيء من كلامهم إلى مبلغ بلاغتها، ولها دلالتها المطوية وهي دلالة ما يذكر على ما يقدر اعتمادًا على القرينة وهذه الدلالة قليلة في كلام البلغاء وكثرت في القرآن مثل تقدير القول وتقدير الموصوف وتقدير الصفة. ولها دلالة مواقع جملة بحسب ما قبلها وما بعدها، ككون الجملة في موقع العلة لكلام قبلها، أو في موقع الاستدراك، أو في موقع جواب سؤال، أو في موقع تعريض أو نحوه. وهذه الدلالة لا تتأتى في كلام العرب لقصر أغراضه في قصائدهم وخطبهم بخلاف القرآن، فإنه لما كان من قبيل التذكير والتلاوة سمحت أغراضه بالإطالة، وبتلك الإطالة تآتى تعدد مواقع الجمل والأغراض²⁴».

ففكرة النظم ظلت تستوعب كل مركبات الخطاب القرآني، وظلت معها جهود الأدباء المفسرين وقافة عند لفظه ومعانيه، وتراكيبه وتصويراته بعقد الموازنات بينه وبين سائر الكلام المنتخب. ومن هنا أفنى علماء الأدب والبلاغة قواهم في تخريج الصنوف الدلالية

ينظر: غانم حنجار، القيم الأدبية في نصوص التفسير، ص 23.75

الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج 1/110.24

والبلاغية التي تترسم عليها وجوه الإعجاز النظمي. كل ذلك ولم يزالوا بعيدين عن أغوار سره، ومنتهى حقيقته لأن بدائع القرآن في التصرف بأساليب التعبير البليغ لم تنله جياذ البلاغة في مضامير الكلام الحاصل في أشعارهم، وخطبهم وأسجاعهم، وحتى في حكمهم وأمثالهم. « فبني نظمه على فواصل، وقرائن فلم تفته سلاسة الشعر، ولم ترزح تحته قيود الميزان. فجاء القرآن كلاما منثورا ولكنه فاق في فصاحته وسلاسته على الألسنة، وتوافق كلماته وتراكيبه في السلامة من أقل تنافر، وتعثّر على الألسنة فكان كونه من النثر داخلا في إعجازه»²⁵.

اتفقت آراء النقاد والبلاغيين القدامى في الحكم على عنصر الإعجاز برده إلى طبيعة بنائه- وهو ما عرف بالنظم القرآني- فمنهم من تنبّه إلى وجه غفل عنه أناس كثيرون، وهو تأثيره في الذات المتلقية بالإذعان إلى سلطان بيانه، وهو سبب نفسي محض، شأنه إثارة مواجيد السامع، وإن لم يكن له أدنى قدر من العلم بلسان العرب، فكيف والحال مع من هم في صفوة البلاغة، من أرباب الكلام. قال الخطابي: « قلت في إعجاز القرآن وجهها آخر ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من أحادهم وذلك صنيعة بالقلوب، وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ولا منثورا إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس، وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب- الاضطراب - والقلق وتغشاها الخوف والعرق، تقشعر منه الجلود وتنزعج له القلوب»²⁶.

فهو لا يزال صنيعة بالقلوب كذلك في كل عصر، ومكان حتى مع الذين لا يعتقدونه إلا من جهة الفصاحة، فهذا الشاعر المعاصر (نيقولا حنا) يقر بسرّ تأثيره فيه فيقول: « قرأت القرآن فأذهلني، وتعمّقت به ففتنتني ثم أعدت القراءة فأمنت، أمنت بالقرآن العظيم، وبالرسول من حملة النبي العربي الكريم، أمّا الله فمن نصرانيّتي ورثت إيماني به، وبالفارقان عظم هذا الإيمان. وكيف لا أؤمن ومعجزة القرآن بين يدي أنظرها وأحسها كل حين، هي

25 الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج1/115.

الخطابي، إعجاز القرآن، ثلاث رسائل في الإعجاز ، تح: محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، 3ط، مصر، 26 دار المعارف، 1976، ص70.

معجزة لا كبقية المعجزات، معجزة إلهية خالدة تدل بنفسها عن نفسها، وليست بحاجة لمن يحدث عنها، أو يبشر بها»²⁷.

وهذه الشهادة لا ينبغي إكبارها على اعتبار جهتها الصادرة منها، فكم من قوم شرفهم القرآن بفضل ما اعترفوا له من الحق، ومع ذلك يبقى مؤمنوهم وكفارهم عاجزين بقدرتهم أمام عجائب نظامه، حتى وإن جددوا في شأنه آليات القراءة، وأسباب الفهم؛ ذلك هو مبلغهم من الإدراك في شأن النص المعجز من جهة عبارته التركيبية، أما جهة التركيب النفسي الموضوعي ذلك ما هو مطلوب من القارئ المسلم إدراكه²⁸.

إنّ في توشي معاني النحو: «نقتفي آثار المعاني وترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النفس، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس النظم الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق»²⁹. فالنظم أحد مظاهر الدلالة اللغوية والإعجاز اللغوي على حدّ سواء، «ذلك أن نظم القرآن على تصرّف وجوهه واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم وله أسلوب يختص به، ويتميز في تصرّفه عن أساليب الكلام المعتاد»³⁰.

ومن أمثلة ذلك توظيف بعض الحروف للدلالة على النص اللغوي، وهذا الأمر يقوم فارقاً بين معنى وآخر، فبإمكان هذه الحروف أن تفصل المعاني عن بعضها خاصة في الآيات المتشابهات. ففي قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّائِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِّنَ الرِّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمْ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ...﴾³¹ نسيج من المعاني غاية في النظم والدقة والترتيب، وأساس ذلك «القراءة المباشرة والترتيب النزولي وأفضلية

أحمد سيد محمد عمار، نظرية الإعجاز القرآني وأثرها في النقد العربي القديم، ط1، دمشق- سوريا- دار 27 الفكر، 1998، ص110.

مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين، دمشق - سوريا- دار الفكر، 1987، ص28.67

عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص87، 29.88

الباقلاني، إعجاز القرآن الكريم، ص53.30

النساء/ 31.23

علاقة الذكورة، ولهذه الاعتبارات قيمة دلالية»³². وباعتبار قيمة أفضلية علاقة الذكورة في هذا النظم أساساً، نجد أنّ «النظم يخالفه صراحة؛ إذ قدّمت بنت الزوجة والعلاقة فيها الأنوثة على حليلة الابن والعلاقة فيها الذكورة»³³.

• قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

1. القاضي أبو بكر الباقلاني - إعجاز القرآن - عالم الكتب - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى 1408 هـ 1988.
2. أبو فهر محمود محمد شاكر، مداخل إعجاز القرآن، مطبعة المدني: القاهرة مصر، دار المدني، جدة، السعودية: الطبعة الثانية 1435 هـ 2014 م.
3. عبد الله دراز، النبأ العظيم، دار الثقافة - الدوحة، قطر، 1405 هـ 1985 م.
4. عبد الفتاح الخالدي، إعجاز القرآن البياني و دلائل مصدره الرباني، دار عمان، الطبعة الأولى 1421 هـ 2000 م.
5. مجد الدين الفيروز آبادي، القاموس المحيط.
6. جمال الدين بن منظور، لسان العرب، المجلد 13.
7. أبو عثمان الجاحظ - البيان و التبيين - تحقيق عبد السلام هارون - مكتبة الخانجي - القاهرة - الطبعة السابعة 1418 هـ - 1998 م الجزء الأول.
8. أبو الحسن علي بن عيسى الروماني، النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاثة رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله أحمد، محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، الطبعة الثالثة، 1976 م.
9. محمد الطاهر بن عاشور - التحرير و التنوير - الدر التونسية للنشر - تونس، 1984 م الجزء السابع و العشرون.
10. عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تصحيح الشيخ محمد عبده، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى، 1409 هـ 1988 م.
11. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، قراءة و علّق عليه محمود شاكر، د.

خصائص التعبير القرآني، عبد العظيم أحمد المطعني : ص: 38632

المرجع السابق، ص: 33.388

12. جار الله الزمخشري، الكشف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 1430هـ/2009م الجزء الأول.
13. مصطفى صادق الرافعي - إعجاز القرآن و البلاغة النبوية- دار الكتاب العربي - بيروت- الطبعة التاسعة 1393هـ/1973م .
14. منقور عبد الجليل، علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي، د ط، دمشق- سوريا- منشورات اتحاد الكتب العرب، 2001.
15. غانم حنجار، القيم الأدبية في نصوص التفسير.
16. الخطابي، إعجاز القرآن، ثلاث رسائل في الإعجاز ، تح: محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، ط3، مصر، دار المعارف، 1976.
17. أحمد سيد محمد عمار، نظرية الإعجاز القرآني وأثرها في النقد العربي القديم، ط1، دمشق- سوريا- دار الفكر، 1998.
18. مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين، دمشق - سوريا- دار الفكر، 1987.
19. خصائص التعبير القرآني، عبد العظيم أحمد المطعني.